أسناني، دموعي، والأفلام المصرية

• عدنية شبلي

قصة قصيرة

من المؤكّد أنّ عمري لم يكن يزيد عن العاشرة حين وجدتُني ذاتَ عصرِ أحدِ أيام الجمعة أقف أمام خيارَيْن عصيبَيْن: البقاء في البيت والتمكن من مشاهدة الفيلم العربيّ؛ أو الذهاب إلى طبيب الأسنان حيث سيتاح لي أن أمتّع ناظريّ بمسامات وجهه لحظةَ يقرّبه مني بينما يداه ـ يدا الدكتور ف ـ تجالدان التسوُّسَ في فمي.

كانت الساعة تدنو من السادسة إلاّ ثلثًا تقريبًا حين شقّت سيارةُ والدي الطريقَ، داخلها أنا وهو، عائدَيْن من عند الطبيب، وحيدَيْن فوق الشارع الرئيسيّ الوحيد لعرب الشبلي: قريتي.

كانت الشمس قد غابت إذنْ، مخلّفةً العتمةَ وراءها تستولي على الإسفلت والبيوت والأشجار، فيما يَعْبث بينها الفراغُ والسكون. كان الجميع بلا استثناء، وببساطة ووضوح، في ذلك الوقت من النهار، أمام التلفاز، يشاهدون الفيلمَ المصريّ الذي اعتاد التلفزيونُ الإسرائيليّ ـ القناة الأولى قسم البرامج العربية ـ بثَّه عصرَ كلّ يوم جمعة.

حتى أولئك الشباب الذين اشتُهروا بفقدانهم للروح الرياضية، ومن ثمّ بتحطيمهم لأطراف لاعبي أيّ فريق كرة قدم يجرؤ على الفوز على فريق عربنا، قد هَجَروا في ذلك العصرِ «الدوّارَ» ـ وهو الاسم الذي نُطْلقه على قطعة الشارع التي تلتفّ بزاوية ٧٠ درجة تقريبًا ـ وانضموا إلى موكب المشاهدين.

فانتابتني الدهشة.

◆ ◆ ◆

قريتنا صغيرة، غير أنّ هذا لم يكن يَخْطر على بالنا، إذ إنّها كانت ـ وما تزال ـ عالمًا متكاملاً بحقّ. في الأفق، تنتشر قصصُنا وأحلامُنا وأحاسيسُنا التي كانت تعود وتنشأ وتتكدس على الأفق المقفر ذاتِه، عدا بضعة أشجار سرْو.

عامةً، الحياة مقرفة جدًا، وحقيرة. في كلّ صباح أذهب إلى مدرستي، حاملةً الآمالَ ذاتَها: إمّا في وصول يوم العطلة، أو في أن يقوم الفدائيون أخيرًا بإطلاق كاتيوشا على المدرسة الابتدائية في عرب الشبلي ومن ثم تفجيرِها وتفجيرِ أبوابها وشبابيكها ومقاعدِها وغرفةِ المدير والسكرتيرة وغرفةِ المعلمين وأشياء عديدةٍ أخرى. في نهاية المطاف، لولا مَقْدمُ ذلك الشيء الذي اسمُه يومُ الجمعة ـ يوم العطلة ـ حاملاً في طياته كلَّ أسبوع ومن جديدٍ فيلمًا رائعًا يَشْغف القلوبَ بما يحوي من عواطف جياشة، لكانت حياتُنا عذابًا مطلقًا، وبدون طعم.

◆ ◆ ◆

ما أجمل يوم الجمعة.

نصحو متأخرين، نحن أبناءَ البيت، فقط لكي نتناول إفطارَنا الذي يحتوي كلّ أنواع الخضار المقليّة. بعدها أتفرّغ للجلوس إلى جانب شقيقيّ: هما يشاهدان مباريات كرة القدم المختلفة، وأنا أموت مللاً. أحيانًا كان أحدهُما يداعبني في استراحةِ ما بين الشوطيْن، فأموت من شدّة الضحك. يا إلهي كم كانا يُضحكاني!

بعد مشاهدة ما يقارب ثلاثَ مباريات وعدم مشاهدة خطبةِ صلاة الجمعة، تكون الساعةُ قد اقتربتْ أخيرًا من الخامسة بعد الظهر، حيث سيبدأ عرضُ الفيلم. غير أنَّه منذ الساعة الرابعة والنصف تبدأ شقيقاتي بالتجمُّع أمام التلفاز، كلّ واحدة تَسْبق الثانية إلى احتلال المكان الأفضل، بينما أنا في حضن أبي، مع أنَّه كان بودّي لو أجلس على بعد متر من الشاشة، لكنّ الجميع كان يمنعني بحجة أنّ ذلك سيُفقدني بصري. حسنًا.

عادةً، يمضي النصفُ الأولُ من الفيلم بخير، غير أنّ العدّ التنازليّ يبدأ بعد ذلك، في نصفه الثاني. عندها أبدأ بالتهيُّؤ لتخبئة وجهي تحت الغطاء كي لا يرى أحدُهم دموعي التي ستنهمر عاجلاً أم آجلاً. أحيانًا، حين تكون النهاية جدّ مأساوية، لا أعود أستطيع لذلك سبيلاً، فأروح أشهق بشكل فاضح. لكنّني لا أُنْكر أنّني شعرتُ بالخديعة ذاتَ يوم حين اكتشفتُ أنّ مَنِ اعتصرني موتهُ ألمًا في الأسبوع الماضي قد عاد إلى الحياة هذا الأسبوع، فعلّلتُ ذلك بأنَّه ربما قام بعمل هذا الفيلم قبل أن يموت، أو ربما هذا ما شَرَحه لي إخوتي وقتئذٍ.

وقد كان بكائي يسلّي إخوتي، فيخبرون الجميعَ فيما هم يَضْحكون بأنّني بكيتُ أثناء الفيلم.

هم يضحكون، هم. هم مَنْ قسّموا حيطانَ البيت بينهم ليُلْصقوا صورَ مَنْ عشقوا حتى الوله: نجلاء فتحي، حسين فهمي، نور الشريف، نورا، شمس البارودي، نيللي، ميرفت أمين، محمود ياسين، رشدي أباظة، عبد الحليم، فاتن حمامة، عمر الشريف. كنا نلتهم صباحَ مساءَ صورةَ عمر الشريف، وشقيقاي يحاولان تمشيطَ شعرهما: الأول مثل مصطفى فهمي، والثاني مثل سعيد صالح. تلك هي الحقيقة: ما كان يحدث يوم الجمعة على الشاشة الصغيرة كان جزءًا من حياتنا ومن حائط بيتنا.

لكنْ لا بأس.

بل ذات يوم، حين ذَكَرَ إخوتي أنّني أبكي كثيرًا أثناء مشاهدتي الأفلام المصرية، اعترفتْ زوجةُ عمّي بأنّ ابنها البكر، أي ابنَ عمي المجرم بعضَ الشيء، يبكي هو أيضا خلال مشاهدتها.

◆ ◆ ◆

لم تكن أهميةُ هذه الأفلام لتقلّ في الحياة العامة عنها في المستوى الشخصيّ، إذ اتخذت الأحداثُ اليوميةُ في «العرب» مسارًا شبيهًا بتلك الأفلام. في كلّ أسبوع تقريبًا كانت تَظْهر قصةٌ ما، لها أبطالُها المحددون الذين هم من البلد. كانوا دائمًا هناك ولكنّهم مندثرون، وبانتهاء القصة يعودون إلى حيث كانوا من قبل، مخلِّفين في الفضاء لمساتِهم الخاصةَ، الشبيهةَ بما يخلِّفه فيلم قد انتهى.

◆ ◆ ◆

نجلاء وفتحي.

نجلاء كانت تحبّ فتحي؛ والعكس صحيح. وكان مئاتُ الرجال يحلمون بأن تُلْقي إليهم بنظرة فقط من عينيها، أحلى عينين في الكون، تمامًا مثل عينيْ نجلاء فتحي؛ وكانت تُشْبهها كثيرًا. غير أنَّ نجلاء فضّلتْ فتحي، اللصَّ النكرة. وكانا يذهبان للتمشي فوق الشارع الترابيّ الذي يقود إلى المقبرة، حين يتم الإفراجُ عنه، وإلى أن يعود إلى السجن ثانيةً. أما مرجانة والدتُها، فلم تَمْلك من حِيَلٍ أمام علاقة الحب المجنونة هذه إلا ملاحقة العاشقيْن بكلّ ما في البيت من أحذيةٍ كان علينا تجميعُها وإعادتُها إليها في استراحة الظهيرة ـ فقد كان بيتُها يحاذي المدرسة. غير أنّنا، جميعًا، صغارًا وكبارًا، كنّا مع نجلاء وفتحي وقصةِ حبِّهما، ضدّ مرجانة الشريرة التي ما كانت لتَفْهم

أنّهما كانا مكتوبيْن واحدهما للآخر، وبحذف الواو: نجلاء فتحي. بالأحرى، كانت مرجانة تريد أن تتاجر بجمالِ نجلاء فتزوِّجَها إلى رجلٍ غنيٍّ ومحترم.

◆ ◆ ◆

كانا طيبيْن وجيديْن، نجلاء وفتحي. لكنّهما راحا يعيشان حياةً زوجيةً متقطعةً بسبب حالات اعتقال الزوج المتكررة، إذ ما كان ليتوب أبدًا: فقد كان مجرمًا بشكل مَرَضيّ.

وذاتَ ليلة، حوالى الساعة الثانية صباحًا، عاد فتحي من السجن بشكل مفاجئ، فوجد صديقَه عمر في سرير زوجته.

ما العمل الآن؟

◆ ◆ ◆

في الصباح، كانت نافذةُ الدكّان الذي اعتادت نجلاء الوقوفَ خلفه لبيع العصير الاصطناعيّ لأولاد المدرسة مقفلةً. يوميْن رحنا وجئنا أمام بيتهما، نراقب أبوابَه وشبابيكَه المقفلة، وخلفها نجلاء وفتحي. من ناحية أخرى، أصاب زوجةَ عمر، التي كانت تُشْبه نجاة الصغيرة إلى درجة مذهلة، انهيارٌ عصبيٌّ نُقلتْ على إثره إلى المستشفى، بينما أصرّ عمر على الجلوس في شرفة بيته رغم أنف الجميع، يحتسي العرق.

لكنْ ما العمل؟

أمّ فتحي تحدّث النساء اللواتي تجمهرن في بيتها عن مدى حبّها لابنها، وأنّه طيّب، أحبّ زوجتَه بجنون، ووثق بصديقه إلى درجة الخبل. لكنْ يجب عليه أن يطلّقها.

وفي صباح اليوم الثالث، انتهى الترقبُ والانتظار، وبان القرارُ: لقد فرّ فتحي بصحبة زوجته، نعم نجلاء، تاركيْنْ بذلك «العربَ» إلى الأبد.

◆ ◆ ◆

في الواقع، كنّا دائمًا نَحْسب فتحي إنسانًا نكرةً عديمَ الشخصية، مجردَ لصّ أبيض البشرة. غير أنّه، بفعلته هذه، كَشَفَ عن سحرٍ وعن ذاتٍ لم نَحْلم يومًا بأنّها كانت تعيش بيننا. كان بيننا ذلك الحبّ الذي يضاهي في قوّته ما اعتدنا رؤيتَه كلَّ أسبوع على الشاشة الصغيرة: نائمًا كالجواسيس، بعيدًا عن برودتنا وقسوةِ قلوبنا التي لم نَعُدْ نعرف مَخْرجًا منها. لكنّه استطاع؛ اختار ما كنّا نودّ أن يختارَه البطلُ في عصرِ آحدِ أيام الجمعة.

إنّما مَنْ علّم فتحي حبَّ نجلاء، إلاّها هي: الأفلام المصرية؟

◆ ◆ ◆

صدقًا، كانت الأفلامُ المصرية تَبْعث بشيء من الشعرية إلى حيث لم تَحْلم هذه الشعريةُ بالوصول، ذاتَ يوم، إلى قريةٍ صغيرةٍ نائيةٍ كلَّ النأى عن «المشهد الثقافيّ العربيّ،» منزويةٍ على سفحِ جبلٍ أقربَ إلى التلّ، في الجليل الشرقيّ، ومنعزلةٍ لا عن العالم العربيّ وحده بل عن العالم بأسره.

لقد كانت هذه الأفلامُ الطَّعْمَ الوحيد الذي كان يُمْكننا تذوُّقُه من الوطن العربيّ، ولوقت طويل، من داخلِ طَوْقٍ أُحكِم إغلاقُه، من الداخل كما من الخارج.

على أية حال، منذ ذلك اليوم لم أرَ نجلاء وفتحي. ولكنَّني ما أزال مواظبةً على مشاهدة أيّ فيلم مصريّ يقدَّر لي حضورُه ـ وتلك هي طريقتي الأساسية للتواصل مع العالم العربيّ، وطريقتي الوحيدة لرؤيته.

أما في ذلك العصر من يوم الجمعة، في الساعة السادسة إلا ثلثًا، بينما كانت سيارةُ أبي تشقّ طريقَها عائدةً بنا من عند طبيب الأسنان، فقد انتابني إحساسٌ بالخسارة، لا حدودَ له، في قلبي.

عدنية شبلي (١٩٧٤، قرية عرب الشبلي):

رواية وقصاصة نشرتْ لها عدّة نصوص في مجلات عربية مختلفة. فازت روايتها الأولى **مساس** (صدرت عن دار الآداب هذا العام) بجائزة مؤسسة عبد المحسن القطّان عام ٢٠٠١. وقد أرسلتْ قصتها المنشورة أعلاه إلى المجلة مباشرة.